كورني فاسيليف

للفيلسوف الروسي تولستوي

بقلم الأديب أحمد فتحي مرسي

يعد ليون تولستوي في مقدمة كتاب روسيا الحديثة ... وتعد كتاباته الأناجيل الأولى للثورة الأخيرة .. ولد في سنة ١٨٢٨ وتثقف ثقافة فرنسية ثم بدأ كتاباته بتصوير حال الفلاحين البائسة ونقد نظام الحكم فبرع في هذه الناحية ، ولذا يرى متتبع أثره الأدبي أن جل مؤلفاته في هذه الناحية

وقد نزل تولستوي في أواخر أيامه عن ممتلكاته للفلاحين مما أكسبه عطف هذه الطبقة عليه ، وتعلقها به .

وقد ماز تولستوي عن غيره من كتاب روسيا الحديثة النهج الواقعي الذي انتهجه لنفسه (Realism) فخالف بذلك من سبقه أمثال بوشكين و « جوجول » وكذلك مازه منهم دقة تصويره لحال الفلاح وسيلمس القارئ ذلك جلياً في هذه القصة

وقد اختفى تولستوي في أواخر أيامه وتوفى سنة ١٩١٠

فتحي

لم يكن كورني فاسيليف قد نصل بعد من ربيعه الرابع والخمسين عند ما عاد إلى الريف المرة الأخيرة ؛ ولم يكن الشيب قد وسم خصلات الجثلة المسبلة فحسب ـ بسمته الغراء ، بل جازها إلى عذاريه فمسهما مواسُه ، ولاحت بهما رواعيه ... وكان أملس الوجه ، رشيق التركيب ، رحيب ما بين المنكبين ؛ تلوح على وجهه رفاهة المدنية وعيشة الحضر

ومنذ عشرين حولا خلت تحرر كورني من ربقة الجندية وتعلّق التجارة ؛ ولكن ما تلبث أن غشي نفسه الملال ، فأخذ يربي الماشية ترعى كلأ الضفاف وعشب المروج

وكان كورني يقيم « بجابي » في منزل تالد الطراز ، متهدم الشرف ، ومن حوله أم عجوز في مغرب حياتها ، وزوجة شابة في ريعان صباها ، وطفل وطفلة لم يتخطيا المهد ، ويتيم فتى تربطه به وشيجة القرابة وآصرة المودة

وباع كورني آخر رأس من ماشيته وهو حمل صغير ، بعد أن اقتصد زهاء ثلاثة آلاف روبيل . ووصل إلى سمعه أن ريفياً في الجيرة يبيع أرضه بثمن زهيد ، فذهب يتقصص أثره ، ويتسقط خبره ، إلى أن وقع عليه في بلدة قريبة ، فعاد إلى بلدته بعد الصفقة ، وعهد السوم ، ويعود بالثمن

وعند ما بلغ كورني المحطة ، وكانت في جهة قصية عن البلدة ، كان الصباح قد لألأت حواشيه ، وكان الجو مغشي بالسحب الجون ، والجليد يساقط على الأرض في هينة ولطف ... وما غادر كورني القطار حتى التقى بالعم (كازما) ، وهو رجل رقيق الحال ، حقود النفس ، يغتاب الناس ويختانهم ، ويطوي في نفسه الحسد والحقد على الموسرين ، وخاصة كورني ، وكان يدعوه « كورناشكا »

وكان للعم كازما عربة قديمة يجرها زوج من الخيل الهزال الضامرة ، يثني مقادتها كل يوم إلى المحطة ، علّه يعود من الركب برجل أو اثنين ... وبهذا كان يقيم أوده ... ابتدره كورني قائلا :

— ألا تنقلنى معك إلى البلدة أيها العم كازما ؟

— نظير روبيل إذا قبلت

— أظن أن فى سبعين كوبك الكفاية

فثنى الرجل هامته موافقاً وهو يسارقه النظر الشزر ، فصعد كورني فتطرح على المقعد الخلفى للعربة ، وهو لاغب وهنان ، ثم قال :

— حسن ... يمكنك أن تسير الآن

فانطلقت بهما العربة فى طريق رصف ظليل ، وغشى عليهما الصمت برهة ؛ وأخيراً قال كورنى :

— وكيف حال البلدة أيها العم كازما ؟

— على خير حال يا سيدى ... اللهم إلا ... فقاطعه قائلاً :

— اللهم إلا ماذا ؟ أماتت العجوز ؟

— كلا يا سيدى ... إنها فى عافية صحيحة ... وكذلك زوجتك الحسناء ... ولم يحدث شىء سوى أنها استخدمت عاملاً جديداً يدعى « اڤستينى »

وأرسل العم كازما ضحكة مرنة نزلت على كورنى كالسم الوحى ، فعند ما بنى كورني بمارفا ، كانت الألسن تتقول بذلك الاسم السالف بجانب اسمها .. واسترسل كازما يقول :

— هكذا تسير الحياة ... إن أحداً لا يمكنه أن يحد من حرية المرأة

— هكذا يقولون ! ...

ثم قال كورني حائداً بمجرى الحديث :

— إن جوادك الكميت قد لحقه الكبر ... وكذلك الأشهب

— لابدع فى ذلك يا سيدى ... فهما كسيدهما على شفا القبر

وبعد أن طوت المركبة زهاء نصف الطريق لاح لهما خان صغير على رجع البصر ، فأمر كورنى العم كازما أن يقف عنده حتى يستريحا قليلا ويريحا الجياد اللاغبة ... فجذب كازما عنان الخيل ، ومضت العجلات تثاقل فى دوراتها حتى همدت حركتها . فهبط العم كازما يمرس أطرافه فى رخاوة وكسل ، ومضى يرتب المقاعد ، وينسق الرصائع ، وينظم أعنة الخيل

وقال كورنى :

— هل لك فى كأس من الخمر أيها العم كازما ؟

— لك الشكر يا سيدى

وجلسا يعبان الجام تلو الجام حتى أفضت الخمر إلى مكمن أسرار كازما فمضى يفيض ويسترسل فى الحديث قائلاً :

إننى آسف لك أيها السيد كورنى ... كثيراً والله ما صددت الألسن عن التشدق بك والخوض فيك قائلاً للناس: « ومامقدمه بعيد ؛ وسترون كيف يغار على شرفه »

وكان كورنى يسمع إليه وهو متكفىء اللون ، متفزع القلب ؛ وأخيراً قال فى خفوت :

— ألا تريد أن تسقى الجياد ؟ إن كنت لا تود فدعنا نرحل

ومضت العربة تزيف فى خطرتها ، وتصل ما انقطع من الطريق ... وأخيراً بلغ كورنى البلدة عند ما خرجت الشمس جبين الأفق الغربى ... فغادر العربة ، وهو ثائر الخاطر عجلان الخطو ، وما ولج الباب حتى قابله اڤستينى بنفسه فحياه تحية فاترة ثم صعد الدرج فى تراخ وهينة

وقابلته زوجته فى نهاية الدرج مرحبة باسمة ، وقادته إلى غرفته حيث لحقت به والدته وهى عجوز رقيقة

البدن سوداء العينين ، فرحبت به باسمة جذلة ، ثم جلست تناقله الحديث وتجاذبه القول ، وهو ثائر شارد لا يناقشها القول ولا يراجعها العبارة .. وفجأة تذكر العم كازما في الخارج ، فابتدر الباب ، وما كاد يجتذب مصراعه حتى لمح زوجته وأڤستينى يتهامسان قربهما دون أن يثنى إليهما الطرف وخرج فدعا كازما ليتناول معه الشاى فلبى دعوته

وجلس على المائدة كورنى صامتاً معقود اللسان اللهم إلا كلمة قصيرة يحيي بها ضيفه ، وبسمة عارضة يختطفها من شفتيه

وانفضت المائدة وانصرف كازما ، وعاد كورنى حزينا واهيا ، فاستلقى على مقعد طويل ، ووسد رأسه كفيه ، وهو ثائر النفس ، موزع الخاطر ... وكانت تطرق أذنيه الفينة بعد الفينة تفتح وتغلق ، وأخيراً ظهرت زوجته بالباب قائلة :

— يلوح لى أنك تعب ... فلم لا تستريح ؟

ثم عمت شطر الفراش فأضجعت ابنتها ... وصعد الدم فى وجه كورني وقد ذكر قول كازما « وما مقدم كورنى ببعيد ؛ وسترون كيف يغار على شرفه » وجاش الغضب فى صدره ، وانشعبت به الأفكار ... وأخيراً رفع وجهه إلى زوجته وكانت مستغرقة فى صلاتها صادفة عما حولها

ثم قامت بعد برهة فتثنت على طفلتها فى رفق ولين قائلة لزوجها :

— إن « أجاشا » نائمة ... لقد أسبل الكرى جفنيها وهى بين ذراعى

— ... ...

ثم سألها بعد برهة :

أيعمل إڤستينى هنا منذ طويل ؟

— إڤستينى ... لا أذكر ... منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع

— أتعيشين معه ؟

فانتهضت واقفة ، وقد تفزّع وجهها ، وتكأكأ لونها :

— أعيش مع إڤستينى !.. ما هذه الأفكار أيها الرجل .؟ من قال لك ذلك ؟ من روى لك الكذب؟

— إنى أسألك : أهذا صحيح أم لا ؟

« قالها وقد اربدّ وجهه »

— دع عنك هذه الأراجيف .. أأخلع لك الحذاء؟

— إنى أعيد السؤال على سمعيك .. أهذا ...

فقاطعته :

— أهذه هى التحية التى تحملها الى ... مَنْ أخبرك بهذا الكذب ؟

— ما الذى كنت تقولين له عند ما لمحتكما وأنا أدعو العم كازما ؟

— ما الذى قلته ... قلت له أن يغير غطاء الخوان

— خبرينى الحق ... وإلا قتلتك

وأخذه الغضب فجذبها من شعرها بقوة آلمتها

— إنك لا تبني سوى الشجار ... يا إلهى كيف أخلص من تلك الحياة ؟

— كيف تخلصين من هذه الحياة ... ؟ قالها وقد احتدم غضبه المتوقد

— أجل . لماذا تنابزنى بالألقاب ... وترمينى برميّاتك الباطلة ؟ ماذا أفيد من حياة كهذه ... ؟

ولم يدعها تتم كلامها بل انقض عليها يوسعها صفعاً وركلاً ، وهو كلما أغرق فى ضربها أغرق فى حنقه ونقمته عليها ، وهي بين ذراعيه تتخبط كالطائر فى القفص ، تتلقى لكماته بيديها ،

وتستدفع ذراعيه بذراعيها ... وبين ذلك تيقظت الطفلة على الجلبة وهرعت إلى أمها ، فجمحت به توازى غضبه فرفعها ورماها فى أقصى الغرفة بكل ما وسعت قواه ، فأخذت الطفلة تصيح لحظة أو لحظتين ، ثم تخافت بكاؤها وخمدت أنفاسها

وأقبلت والدته العجوز تستطلع جلية الأمر وقد تهدل شعرها الرمادى الجثل ، وهرعت إلى الطفلة دون أن تتعالم الخبر من كورنى وحملتها بين ذراعيها ، وكان كورنى جامداً فى مكانه يتنفس فى ثقل ، وقد جهده الصراع ، وهد من قواه ، وصاحت العجوز :

— أنظر ماذا أنزلت بالطفلة ... لقد كسرت ذراعها

لكن لم يبد على كورنى أنه فهم شيئاً ، واستدار على عقبيه وخرج من الحجرة حتى بلغ ساحة الدار ، وكان الظلام غاشياً على الكون ، والجليد يتساقط فيذوب على وجهه المتقد ، وطفق يأكل ما علق بالسياج من الجليد كأنه يطفئ به لاهب حناياه وضارم قلبه ... وكانت الريح تردّ إليه من جهة المنزل أصداء بكاء الطفلة فيخيل إليه أنها صادرة من أفق ناء عنه

وأخيراً هب كورنى من مجلسه ودخل غرفته فأسرج ثم أخذ يرتدى ثيابه . فلما فرغ منها انتقل إلى الغرفة الأخرى ، فأيقظ الغلام اليتيم ليسرج له الفرس

وكان الفجر قد أفصح عند ما امتطى كورنى صهوة فرسه ومضى فى الطريق الذى جاء منه أمس فى صحبة كازما

وبلغ كورنى المحطة قبل تحرك القطار ببضع دقائق ، فارتمى لاغباً على مقعد العربة ، ثم صفر القطار وتحرك ، ثم غاب ... فغاب معه كورنى

— ٢ —

سبعة عشر حولاً تقضت

وكان الوقت خريفاً وشمس الطفل الغاربة تلملم مطارفها المنضّرة المذهبة عن المروج ، وقطيع السيد أندريف فى طريق العودة وهو ينقر الطريق بأظلافه نقرات منتظمة رتيبة تثير فوقه من النقع مايلبد الجو ويغشي على العيون .. وكان يماشى القطيع فى المقدمة شيخ واهن أشيب الشعر تنوس خصلاته الغزار على عطفيه ، وعلى متنه حقيبة عتيقة ؛ وكان القطيع قد جازه إلى النصف فبدت راعيته الحسناء تحتث الخطى فى جنباته منتقلة من جانب لجانب إلى أن بلغت ذلك الشيخ فحيته فى عجلة وسألته فى عطف : لعلك غريب عن الناحية يا سيدى ... وأظنك في حاجة إلي مكان تقضى فيه الليل ... فلا تقصد غير دارنا ... الثالثة من أقصى البلدة ، وهناك كنّتى وهى عجوز مثلك وستلقاك بكل ترحيب

— الثالثة من أقصى البلدة ؟ أظنها دار « زينوفيف »

— ومن أين عرفت ؟

— لقد كنت هناك

وأسرعت الفتاة إلى مؤخرة القطيع تستحث حملاً صغيراً ذا ثلاثة أرجل ليلحق برفقته

أما الرجل الشيخ فقد كان كورنى فاسيليف ، وأما الراعية الحسناء فكانت ابنته أجاشا التى كسر ذراعها من سبعة عشر عاماً وكانت قد تزوجت فى قرية صغيرة تبعد عن « جاى » قرابة أربعة أميال

وتحول كورنى من ذلك الرجل ذى الحول والطول والثراء ، إلى ذلك الرجل ذى الاطمار البالية

والأعصاب الواهية ، والجسم الهازل الوهنان ، وهو كلما أمعن فى السقم أمعن فى التثبت والتيقن أن زوجته هي التى جرت عليه ذلك العذاب الأليم القيم

ففي ذلك المساء الذى نشب فيه الخلاف بينه وبين زوجته وخرج هائماً على وجهه مرّ فى طريقه بذلك الريفى صاحب الأرض المبيعة ، فعلم منه أنه تم بيعها لآخر ، فقصد إلى موسكو وهناك استباه الشراب وأصباه ، فتلبث يعاقر الخمر ليل نهار حتى علقته وعلقها ... ثم ابتاع قطيعاً من الغنم ولكنه هلك عن آخره ، وأتبعه بآخر ولكن جده تعثر به هذه المرة أيضاً ، فلم يبق فى يده من الثلاثة الآلاف روبيل إلا خمسة وعشرون

وتلمس كورنى طريق العمل فاشتغل كاتباً في مزرعة ، ولكن الخمر استلبت عقله فلم تدعه فى عمله طويلا ... وانتقلت به الحال من سيء إلى أسوأ ... فاشتغل راعياً ولكن طالعه العاثر لزمه هنا أيضاً فنفق القطيع عن آخره لداء انتابه ... ولم يكن لكورنى ذنب في ذلك ولكن صاحب القطيع جمح به الغضب فطرده من عمله هو والكاتب

وأخذ كورنى يطوف بالبلاد بائساً متجولاً حتى انتابته حمى مستعصية وهى لها جسمه ووهنت أطرافه ، وليس ثمة معين له أو مقيل فى غربته ... فقر به العزم أن يصل السير إلى موطنه عسى أن يكون الموت قد أودى بزوجته فيعيش بجانب ولده ما تبقى من العمر . ومضى يقول لنفسه :

— علها قضت نحبها الآن ... فإن لم تكن فسأمضى لأخبرها ما ذا جرّت علىّ من البلاء والهوان

واشتدت عليه الحمى فى الطريق فأضنته وأهزلته وتولته الأناة فى سيره وسراه ، حتى بلغ فى أسبوعين المكان الذي قابل فيه ابنته دون أن يتعرّف عليها

— ٣ —

وفعل الشيخ كما قالت له الفتاة فمضى إلى المنزل وسأل أهله عما إذا كان هناك ما يحول دون قضاء سواد ليله فى ضيافتهم فرحبوا به وأنزلوه على الرحب والسعة ... وقالت له ربة البيت العجوز :

— إنك وشيك أن تتجمد أيها الشيخ ... فها هو ذاك الموقد أمامك

ورحب به زوج أجاشا الشاب وكان يسرج المصباح فى ركن الغرفة ؛ وطفق الشيخ يخلع ثيابه المنداة ليجففها ، وبعد برهة أقبلت أجاشا فسألت عن الشيخ قائلة :

— أورد عليكم شيخ غريب ؟

— ها هو ذا

وكان كورني جالساً قبالة المدفأة يمرس أطرافه المرضوضة ويبسط أنامله فوق النار . ولما حلّ موعد الشاى دعوه فلبى ، وجلس على طرف المقعد ، وأخذوا يتساجلون الحديث عن الجو والزراعة والقمح الذى استأنوا فى حصاده لجفاف الجو

وخرج كورنى من صمته قائلاً : إنه مر فى طريقه بكثير من المزارع المبكرة الحصاد ... والتفت فجأة إلى الفتاة قائلا :

— ما ذا أصاب ذراعك ... لماذا لا تحركينها؟

فتولت عنها ربة البيت الجواب قائلة :

— إنها كسرت ولم تزل وليدة فى المهد

— ولكن لماذا ؟

— كان والدها رجلا من أثرياء جاني يدعى

كورنى فاسيليف ، كان فى عيش رغد مع زوجته ولكنهما اشتجرا ذات يوم ... فجنيا على طفلتهما المسكينة ...

وارتجفت يد كورنى بكوبة الشاى فأراق نصفها قبل أن تصل يده إلى المنضدة ليضعها

— ولكن لماذا فعل ذلك ؟

— من يعلم ؟ كثيراً ما تدور الإشاعات الباطلة حولنا نحن النساء ... يقال إن سبب الخلاف أنها استخدمت عاملاً جديداً من بلدتنا هـذه ، وقد مات بعد ذلك بسنين قلائل ... وسأل كورنى فى ذهول :

— مات ؟ !

— منذ أمد طويل ... لقد كانت العائلة فى خفض من العيش عند ما كان عائلها حياً

— أمات هو أيضاً ؟

— نرجح ذلك ... فقد اختفى من زهاء خمسة عشر عاماً . فقاطعتها أجاشا :

— أظن أن عهد اختفائه أبعد من ذلك ... فقد أخبرتنى والدتى أنه اختفى ولم أزل فى الرضاع

فقال كورنى :

— أأنت نافمة عليه لأنه كسر ذراعك ؟

— وكيف أنقم عليه ... ؟ إنه أبى قبل كل شيء ... أأصب لك قليلاً من الشاى ؟

ولكن كورنى كان مستغرقاً فى صمته تتتابع أنفاسه . فسألته :

— ماذا طرأ عليك أيها الشيخ ؟

— لاشيء ... يحفظك الله

وقام الشيخ يتحامل على نفسه ، ويتساند إلى الحائط حتى بلغ الموقد فجلس تجاهه صامتاً

— ٤ —

وأفصح فجر اليوم التالى عن صباح ماتع من أصباح الخريف فتيقظ كورنى وجمع متاعه وتم شطر الباب فلحقت به ربة البيت قائلة فى دهش :

— أما تنتظر الإفطار ؟

— يحفظك الله ... يجب أن أذهب الآن

— إذن لاتنس أن تمر علينا فى طريق عودتك

فتمتم شاكراً ثم مضي فى سبيله إلى بلدته ، وكانت عواصف الخريف قد تنبهت من غفلتها ، وهبت من رقدتها ، فعصفت بأشجاره ، وغشّت على عينيه ؛ ولكنه كان يعلم الطريق جيداً ، فأخذ يتتبعه دوحة بعد دوحة ، ونهجاً تلو نهج ، وأخيراً بلغ البلدة فإذا كل شيء فيها كما هو العهد به ، إلا القليل من مبانيها الذى خر من عمده ، وتداعى من أواسيه

وأدناه السير إلى داره ، فإذا بها على حالها لم يعبث بها البلى ... وعلى حين اقترابه منها فتح الباب فجأة ، وخرجت منها فرس صغيرة فى قرابة الثالثة من عمرها فادّكر كورنى فرسه التى شيعته إلى المحطة فى سفره ، فقال محدثاً نفسه :

— لابد أن تكون تلك ابنتها ... ففيها من أمها شبه فى صدرها الرحيب وقوائمها الدقاق

وكان يتولى مقادة الخيل إلى سهلها غلام أسود العينين هازل الجسم

— إنه حفيدى ولا شك ففيه من ولدى عيناه السوداوان

وأخذ كورنى يصّعد الدرج فى هوادة وتؤدة حتى بلغ الدرجة التى جلس عليها ليلة أن برح البلدة ، وإذ ذاك طرق أذنيه صوت امرأة تصيح :

ومن هذا الشحاذ المتجرئ على الصعود إلى الدار دون أن يسأل ؟ وعرف فى الصوت صوت امرأته ... ونظر فإذا على مرمق طرفه امرأة ضامرة عجوز ... وكان كورنى يتوقع أن يرى امرأته فيما كانت عليه من جمال وزُهرة ، فإذا به حيال امرأة قد خدّش وجهها ظفر الزمان .. وصاحت المرأة :

— لاشئ عندنا ... يمكنك أن تأكل النافذة إذا شئت

— إننى لم أقدم لأسألك شيئاً

— ما الذى تريده إذن ؟

وتوقفت فجأة عن الحديث وتبدى فى وجهها كأنها عرفته .

— إن هناك كثيراً من السآلين أمثالك ... يحوّمون حول القرية كل صباح فاذهب ... اذهب !

وتداعت أطراف كورنى فتساند إلى الحائط وقد بهت لونه ووجف قلبه وقال فى خفوت :

— مارفا ... لم يبق لنا من الحياة إلا شطر قليل

— أرجوك أن تذهب ... إذهب

— أليس عندك مزيد من القول ؟

— كلا ... ليس عندي مزيد ... فاذهب لشأنك

وبخطى وئيدة تدافعت إلى الخلف وغلّقت عليها الباب ، وفى هذه اللحظة ارتفع صوت رجل من الداخل يقول :

— لماذا تطردين الشيخ ؟

وبرز من الباب شاب فارع القامة ، مستقيم العود أسود العينين ... كان يلوح كأنه كورنى من أربعين حولاً خلت ... ولم يكن ذلك الشاب إلا ولده « فيدكا » الذي خلفه من سبعة عشر عاماً وليداً فى المهد ... قال الشاب :

— لحظة أيها الشيخ ... ثم ارتد إلى المنزل وتلبث كورنى فى مكانه مثنىّ العنق ، مسنداً إلى الحائط ، متهدّل الجسم ، وقد خفت وجيبه وعاوده الضعف ... وخرج إليه بعد برهة شاب تلوح فى محياه الذلة ... عرف فيه ذلك اليتيم الذي كان يكفله ... وتقدم إليه الشاب يضع لقيمات جافة ، فأخذها كورنى من يديه وهو يعالج حبس دموعه التى ندّت وجهه

واستدار كورنى وأخذ ينزل من الدرج ماصعد ، وهو يتكفأ ويساقط فى خطاه ... ومضى في سبيله حزيناً واهنا

وتلبثت مارفا تسارقه النظر من خلف سجاف النافذة حتى غاب فى منعطف الطريق ... وعطفتها الذكريات إلى الماضي فذكرت كورني الشاب الذي ودها وودته ... إنها ما كان لها أن تلقاه فى هذا الجفاء بعد غيبة طويلة ... وتشعبت بها الأفكار وتتالت عليها فمضت تنفضها عنها بالتلهي بالعمل

— ٥ —

وبلغ كورنى دار ابنته بعد لأى وجهد فقالت له :

— إنك لم تذهب بعيداً ياسيدي

— لم أستطع .. فقد وهنت قواى .. سأرجع أدراجى .. أيمكننى أن أقضى الليل هنا ؟

— بكل سرور

وقضى كورنى ليلته فى صراع الحمى ، ساهد الجفن ، نابىَ المضجع ، حتى وضح النهار وغدا كل إلى عمله ، ونظر فاذا أجاشا تعد الخبز على غير بعيد منه فناداها فى عطف فأجابت :

— لحظة واحدة ياسيدى ... أتريد شيئاً ؟

ولكنه لم يجب ، وأقبلت إليه ، وكان متطرحاً على ظهره ، فقال دون أن يرفع إليها الطرف

— أجاشا ... لقد حانت منيتى ... فبحق السماء أسألك الصفح عنى

— صفح الله عنك يا سيدى ... ولكنك لم تفعل ما يستوجب الصفح فاستدمع الشيخ ثم قال

— بل هناك ما يستوجب ذلك ... إذهبى إلى والدتك ... وقولى لها ... وقولى لها ... إن ذلك ... الغريب ... إن ذلك ... الغريب

وأخذ الشيخ ينشج ، فقالت ابنته :

— إذن لقد ذهبت إلى دارنا أمس

— أجل ... قولى لها ... واستجمع الشيخ ما تشتت من قواه ، ثم قال :

— إن ذلك الغريب قد أتى يستودعك الله

وأخذ الشيخ يبحث فى جيوبه بيده الراجفة فسألته :

— عم تبحث يا سيدى ؟

ولكنه كان مستعبراً واجماً فلم يجب ... وأخرج من جيبه بطاقة صفراء صغيرة قدمها إليها قائلاً :

— أعطيها هذه إذا سألت عن ذلك الغريب ... إنها بطاقة الجندية ...

ثم غارت عينا الشيخ ، واصفار وجهه ، وهمس إليها قائلاً :

— أعطينى شمعة

فتناولت قطعة من الشمع وأوقدتها وأعطتها للشيخ وهي تكاد تسقط من التأثر ... ثم ذهبت لتحفظ البطاقة

... وعادت أجاشا فإذا الشيخ جامد في مكانه وقد جمدت عيناه ، ونصلب عوده ، ويبست يده على الشمعة فنادته ... ولكنه كان قد أسلم الروح ...

فأطفأت الشمعة ، ونشرت على وجهه غطاء أبيض

* * *

وقضت « مارفا » الليل لا يغمض لها جفن ولا يقر بها مضجع . فلما انحسر الليل عن جبين النهار تأزرت وخرجت تبحث عن ذلك الغريب ، فلما بلغ منها السعى ، علمت أنه آوى إلى منزل « أندريف » فيممت شطره ومضت تقول لنفسها فى الطريق فليصفح كل منا عن الآخر ، وليقض ما بقى من العمر فى جوار ولده

ولما تدانت مارفا من المنزل رأت جمعاً من الناس قد تحشد على الباب وهم يتخافتون بينهم أن كورنى فاسيليف ، ذلك الرجل الثرى الذى غادر القرية من سبعة عشر عاماً ، يسلم أنفاسه فقيراً فى منزل ابنته

وأقبلت مارفا على المنزل ، فأفسح القوم لها الطريق ولكنها لم تكد تتوسط الدار ، حتى وقع نظرها على جثمان كورنى ممدداً جامداً

إنها وردت مستأنية مبطئة لتسأله الصفح أترى صفح عنها ... وخفضت نظرها إلى وجهه تتلمس فى قسماته جواب سؤالها ... ولكن وجهه كان أملس لا يتماسك عليه إيجاب ولا سلب

القاهرة « فتحى »

كتابان جديدان
الموجز في المحادثات
هما خير كتاب يعلمانك الفرنسية بنفسك
يباعان بجميع المكاتب ثمن كل منهما مجلداً ٦